وقفات لغوية عند محمد شحرور

د.خليفة عبد الحق محاضر "ب"

جامعة أحمد دراية - أدرار - الجزائر

ملخص:

هناك الكثير من الناس الذين يعرفون محمد شحرور مفكرا ارتبط اسمه مع الثقافة والفكر وفق قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم، و لا يعرفونه لغويا فذا، فهو من طرح فكرة وحدة الناموس بين الصناعة والصياغة معتبرا المخلوقات من أصغر ذرة إلى الكون الفسيح صناعة والمصحف الشريف صياغة فهو لا يقبل أن تكون الصياغة أقل من الصناعة، منطلقا من فكرة لا ترادف في المصحف الشريف، ولا حشوية كذلك، فعندما قال تعالى: (حرمت عليكم أمهاتكم) فهو قال أمهاتكم ولا تعني والداتكم، لأنه قال في آية أخرى (وأزواجه أمهاتكم) ولم يقل وأزواجه والداتكم معتبرا الأم لها الحرمة والبر والإرث لقوله تعالى (ولأبويه لكل واحد منهما السدس) وقال أيضا (الوصية للوالدين والأقربين) من هنا استنتج أن الإرث للوالدين والوصية للوالدين.

وقد فرق محمد شحرور بين المصطلحات التالية واعتبرها غير مترادفة: الكتاب-القرآن-الذكر-الفرقان. وقد ذكرت غير مترادفة في بداية سورة (غافر) لقوله تعالى: (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم أفنضرب عنكم الذكرى صفحا إن كنتم قوما مسرفين). أضف إلى ذلك إيجاده للفروق الدقيقة بين بعض المفردات اللغوية والتي اكتشفها من المصحف حصرا مثل الفرق بين (التمام والكمال)- (الإنزال والتنزيل)- (العمل الفعل)- (النبوة-الرسالة)- (السيئة- الذنب) (الكفارة- الفدية). والأمثلة كثيرة حيث سأشرح بعضا منها في المداخلة.

Abstract:**The Linguistic Positions of Shahrour Mohamed**

Many people know Shahrour Mohamed as an intellectual who is preoccupied mainly with culture and intellect in the Quoranic perspective. Yet many ignore his contributions to the science of language and Arabic grammar in particular. This present study tries to cover this notch and present Shahrour Mohamed's position as a linguist.

مقدمة:

تبنى الدكتور محمد شحرور المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية، الذي طرحته مدرسة أبي علي الفارسي، حيث بلورت في اتجاهين أساسيين هما ابن جني في الخصائص والإمام الجرجاني في دلائل الإعجاز. حيث انطلق ابن جني من وصف البنية اللغوية، لأن بحثه في الخصائص كان يدور بشكل رئيسي في نطاق بنية الكلمة المفردة. فعمد إلى دراسة الأصوات التي تتألف منها الكلمات، فبحث في الاشتقاق وأنواعه، إضافة إلى اهتمامه باكتشاف القوانين العامة للنظم اللغوي.

أما عبد القاهر الجرجاني فوصف البنية اللغوية وبين وظيفتها الإبلغية لأنه بحث في نظم الكلم. فعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة الإبلغية التي تؤديها في الكلام. وتوصل الجرجاني إلى أمر غاية في الأهمية: لا يمكن أن تكون الكلمة المفردة أدل على معناها الذي وضعت له من كلمة أخرى. وهذا هو الحافز الذي جعل محمد شحرور ينكر الترادف في القرآن. مستكراً أن يعامل القرآن معاملة الشعر. تبني محمد شحرور لنظرية النظم التي مفادها أن الخبر هو معنى بين شيئين، وليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل.

ينطلق محمد شحور من فكرة أساسية في منهجه مفادها أن المصحف لا يوجد فيه مترادفات، وهذا المنهج في حد ذاته يجعله أمام مهمة صعبة جدا مما يضطره أن يجد مفاهيم جديدة لكثير من المصطلحات التي ورثها الفكر العربي لقرون، فإذا كان الكتاب الذي بين أيدينا من عند الله، ونحن نشاهد ونعيش الدقة الموجودة المتناهية في الكون الواسع من حركة النجوم والشمس ودوران الأرض، إلى الذرة والخلية وحركة البروتون و الإلكترون داخلها .

هذه تمثل الصناعة بالنسبة لله والمصحف يمثل الصياغة، فهو لا يقبل أن تكون الصياغة أقل من الصناعة فلا يجب أن يكون طبيب أمريكي أدق من الله أو عالم رياضيات ألماني، ومن هذا المنطلق لا يجب أن نتبنى نظرية الترادف في اللغة وبدأ تجسيد هذه الفكرة في كتابه الأول الكتاب والقرآن عندما وجد الفرق بينهما مستدلا بقوله تعالى "الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين"¹ بمعنى أن الكتاب هدى للمتقين والقرآن هدى للناس في قوله "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس"²، فالمتقين من الناس وليس كل الناس متقين.

هذا بالضرورة يجعل الفرق بين القرآن والكتاب جليا. ويرجع محمد شحور سبب الترادف أن التنزيل الحكيم عُومل معاملة الشعر، في حين أن الشعر لا يعيبه الترادف بل يحسن من شروطه الجمالية. والمصحف خال من الحشوية بخلاف الشعر الذي يعتبر خاصية من خصوصيات العرب -في حين أن التنزيل الحكيم هداية وكافة للناس أجمعين" قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " فهو يخاطب الناس- . فعندما قال " وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم " فلماذا قال

¹ - سورة البقرة الآية 2.1.

² -سورة البقرة الآية185.

³ - سورة الأعراف 158.

من أصلابكم فإذا كان الاحتمال الوحيد أنه لا يوجد في الدنيا إلا التفاح الأصفر وقلت لك: أعطيتك تفاحة صفراء، هذا يصبح حشوا، فإذا كان الأبناء من أصلابنا فقط وهو الاحتمال الوحيد فيصبح ذكر من أصلابكم حشوا، لكن المقصود هو وجود أبناء من غير أصلابنا أي أن التبني موجود بمنطوق الآية.

القرآن فُسر في مرحلة تاريخية كانت صناعة الشعر في أوجها، وبذلك تأثر المفسرون بالشعر أثناء تفسيرهم للقرآن، مما أدى إلى تبني ظاهرة الترادف من قبلهم علماً أن الشاعر إذا أراد قصيدة بائية قال (أب) وإذا أراد قصيدة دالية قال (والد) والشعر لا يعيبه الترادف أصلاً، ولكن هذا لا ينطبق على المصحف نظراً للدقة الموجودة فيه، والله سبحانه وتعالى نبهنا على أن لا نتعامل مع التنزيل الحكيم معاملة الشعر لقوله "وما علمناه الشعر وما ينبغي له"¹ لأن الذي صنع السماوات هو الذي صاغ المصحف كما ذكرنا سابقاً هذا من جهة ومن جهة أخرى وحدة الناموس في المصحف، وبدلاً أن نقول ما أجمل هذا الكتاب نقول ما أدقه لأن العقل الترادفي غير دقيق والمعرفة تحتاج إلى دقة.

أضف. إلى ذلك أن المعنى الموجود في اسطاع غير المعنى في استطاع فوجود تاء إضافية معناه دلالة زائدة التي أطلق عليها تاء الجهد لقوله تعالى: "فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً"²، "فقوم ذي القرنين، بعد أن بني لهم السد، لم يتمكنوا من اعتلاء ظهره (يظهره)، ولم يقدرُوا على خرقه (نقبا). وننظر في الفرق بين عملية اعتلاء ظهر جبل أو سد، وعملية نقبه و خرقه فنجد أن القدرة التي يجب بذلها في النقب أكثر بكثير من تلك التي تبذل في التسلق. ونفهم أن التاء في استطاعوا، إنما جاءت للدلالة على الجهد والطاقة

¹ - سورة يس الآية 69.

² سورة الكهف الآية 97.

المبدولة في هذا الفعل، أكثر من الطاقة المبدولة في فعل اسطاعوا¹. هذا يعني أنه لا توجد زوائد في المصحف، فمثلا عندما قال النحاة (ما) بعد إذا زائدة في الشعر أو كلام العرب لكن في المصحف ليست زائدة بل لها دلالة، مثل قوله (ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا) هنا (ما) ليست زائدة و لها دلالة... والأمثلة كثيرة.

1- ما هو الذكر؟

لنرجع إلى قوله تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"²

"وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون"³

"ص والقرآن ذي الذكر"⁴

إذا نظرنا إلى لفظة الذكر في الآيات الثلاث وجدناها جاءت معرفة ب(ال التعريف)، وإذا نظرنا أيضا إلى القرآن والذكر في سورة (ص) لوجدناهما مرتبطتين بأداة "ذي" وهذه الأداة تستعمل للدلالة على صفة الشيء لا على الشيء نفسه كقوله تعالى " وفرعون ذي الأوتاد"⁵ وفرعون شيء والأوتاد شيء آخر، والآية تعني فرعون صاحب الأوتاد كقوله: " أن كان ذا مال وبنين"⁶ أي صاحب مال. فالقرآن هنا هو الموصوف و الذكر هو الصفة، وقوله "و القرآن ذي الذكر" يعني القرآن الموصوف بالذكر، فما هي هذه الصفة الخاصة بالقرآن التي

¹ د.محمد شحرور الإسلام والإيمان منظومة القيم، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1996، ص57.

² -سورة الحجر الآية 09

³ - سورة الحجر الآية 06

⁴ - سورة ص الآية 01

⁵ - سورة الفجر الآية 10.

⁶ - سورة القلم الآية 14.

تسمى الذكر.¹ وفي الأخير خلص إلى أن (الذكر هو الصيغة الصوتية المنطوقة والمسموعة أو غير المسموعة للمصحف).²

الفرقان

قال تعالى: "وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون"³

" وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان"⁴

إن آية البقرة 35 التي تتحدث عن شيئين هما الكتاب و الفرقان، جاء إلى موسى كل على حدة ففرقت الآية بينهما بالعطف⁵. لأن الواو في اللسان العربي لا تأتي إلا بين شيئين متغايرين. والآيتان 2-3 من سورة آل عمران التي تبين أن التوراة والإنجيل و الفرقان أنزلت هدى للناس قبل أن يأتي الكتاب إلى سيدنا محمد (ص)، أما في سورة البقرة 185. التي توضح بكل جلاء أن الهدى للناس جاء إلى موسى متمثلاً بالفرقان هو نفسه الذي أنزل هدى للناس في شهر رمضان على الرسول (ص). فما هو الفرقان الذي جاء إلى موسى على حدة مفروقاً عن الكتاب؟. وفي الأخير استنتج محمد شحرور أن الفرقان هو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى عليه السلام وثبتت إلى عيسى عليه السلام ثم جاءت إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وأنها رأس الرسائل الثلاث وسنامها، والقاسم المشترك بينها وفيها التقوى الاجتماعية وهي ما يسمى القيم الإنسانية (الأخلاق)⁶. وهي في الآيات (151-152-153) من سورة الأنعام،

¹ د.محمد شحرور الكتاب والقرآن -رؤية جديدة -دار الساقى بيروت/لبنان الطبعة الثانية 2013 ص64.

² ينظر المرجع السابق ص65.

³ - البقرة 35.

⁴ - آل عمران 3-4.

⁵ -الكتاب والقرآن المرجع السابق ص67.

⁶ -المرجع السابق ص69.

مصطلح الكتاب: الكتاب من (ك ت ب) وهو أصل صحيح في اللسان

العربي يعني جمع أشياء بعضها مع بعض، لإخراج موضوع ذي معنى متكامل، بدلالة قوله تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها)¹ أي جمعها. وعندما نسمي فلانا كاتباً نقصد المواضيع والتأليف الجمل والجمع بعضها مع بعض، وربط الأحداث بعضها إلى ولا نقصد الخط بتاتا إنما نقصد صيغة الجملة وربطها لإخراج موضوع مفيد، فإذا أخرجنا أوريح كلمات هي (جاء) - (الرجل) - (إلى) - (البيت) وجمعناها لنخرج منها معنى مفيدا، تصبح (جاء الرجل إلى البيت) حيث تحمل معنى مفيدا يمكن الوقوف عليه.

فعندما نقول أصدر رئيس الوزراء كتابا نقصد به المعنى (الموضوع) لا الخط حيث يجب علينا متابعة القول وأخبار موضوع الكتاب، وإلا يصبح المعنى ناقصا، كأن نقول: أصدر رئيس الوزراء كتابا بشأ كذا وكذا. وإذا قلنا كلمة كتاب ولم نعطيها إضافة لتوضيح الموضوع يصبح المعنى ناقصا. وحين نقول كتاب الفيزياء للصف العاشر مثلا، نعني أن هذا الكتاب يجمع مواضيع فيزيائية بعضها إلى بعض صالحة للطلب للصف العاشر: كذلك عندما يقول تعالى "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا"². يعني فهو يعني أن الصلاة من المواضيع التعبديّة التي يجب على المؤمن القيام بها، وإنها تتألف مجموعة عناصر تبدأ بالنية وتنتهي بالتسليم مرورا بالوضوء والقيام والركوع والسجود والقعود.

بما أن التنزيل الحكيم الموحى إلى الرسول محمد (ص) يتألف من عدة مواضيع مختلفة، كل موضوع منها كتاب قال تعالى: "رسول من الله يتلوا

¹ - سورة الفرقان الآية 5.

² - النساء 103.

صحفا مطهرة فيها كتب قيمة¹ من هذه الكتب القيمة كتاب الخلق، كتاب الساعة، كتاب الصلاة، كتاب الصوم، كتاب الحج كتاب المعاملات، وعندما نقول كتاب البصر فهذا يعني أننا ندرس العناصر التي إذا ضم بعضها إلى بعض وتتل معينة ينتج عن ذلك عملية الإبصار وهذه العناصر هي الأهداب والجفن والعين والعصب البصري ومركز الإبصار في الدماغ إذا أردنا أن ندرس كتاب العين فهذا يعني أننا ندرس البؤيؤ والشبكية وكل عناصر العين. وعندما ندرس كتاب الهضم فهذا يعني أننا ندرس الفم والأسنان والبلعوم والمريء والمعدة والأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة، هذه العناصر تدخل في عملية هضم الطعام.

عندما جمع الزمخشري أساس البلاغة جمع الأصول التي تبدأ بحرف الألف وسماها كتاب الألف وجمع الأصول التي تبدأ بحرف الباء وسماها كتاب الباء. فأعمال الإنسان كلها كتب ككتاب المشي، وكتاب النوم وكتاب الزواج وعباداته كتب ككتاب الصلاة والحج والزكاة والصوم والظواهر الطبيعية كلها كتب ككتاب خلق الكون وكتاب خلق الإنسان وكتاب الموت وكتاب الحياة وكتاب النصر وكتاب الهزيمة وكتاب الزراعة وكتاب الأنعام وغيرها من الكتب لا تعد ولا تحصى.

كتاب الموت هو مجموعة عناصر التي اجتمعت أدت إلى الموت لا محالة وكتاب النصر هو مجموعة العناصر التي اجتمعت حصل النصر وكتاب خلق الكون هو مجموعة عناصر التي تتركب منها خلق الكون فلا يوجد في أعمال الإنسان وفي الظواهر الطبيعية إلا من خلال الكتب ولذا قال تعالى: (وكل شيء أحصيناه كتاباً)². والإنسانية في نشاطها العالمي تبحث في هذه الكتب وتدرسها

¹ -البينة الآية 2-3

² -النبا 29.

كي تتصرف من خلال عناصرها فإذا أردنا أن تطول الأعمار فعلينا أن ندرس كتاب الموت وكتاب الحياة وعندما نقول كتاب ونقف بيقى المعنى ناقصا حتى نقول كتاب ماذا؟. وعندما قال تعالى (...كتاب أحكمت آياته..)¹ لم يكن يعني كل آيات المصحف إنما يعني مجموعة الآيات المحكمات، عندما قال (كتابا متشابها)² لم يكن يعني كل المصحف إنما يعني مجموعة آيات متشابهات وعندما قال (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا)³. فإنه عنى كتاب الموت أي مجموعة العناصر والشروط الموضوعية التي تؤدي إلى الموت في حال توفرها واجتماعها لذلك فمن الخطأ الفاحش أن نظن عندما ترد كلمة "كتاب" في المصحف إنها تعني كل المصحف لأن الآيات الموجودة بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس تحتوي على عدة كتب كما شرحنا آنفا⁴

بعض الأمثلة في الفروق في اللغة التي اكتشفها الباحث:

الفرق بين الإبلاغ والبلاغ.

إن الهمزة في اللسان العربي تعطي معنى التعدي. مثال ذلك: بلغ وأبلغ، فلدينا

مصطلحان هما البلاغ والإبلاغ . ولنأخذ الآيات التالية:

- "ما على الرسول إلا البلاغ المبين"⁵ ( ) (?)

- "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك..."⁶ ( ) (?)

- "فتول عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم.."⁷

1 - هو د1

2- الزمر 23.

3- آل عمران 145.

4 - الكتاب والقرآن المرجع السابق 55.

5- المائدة 99.

6- المائدة 67.

7 - الأعراف 93.

إن البلاغ هي عملية نقل من شخص إلى آخر دون التأكد من أن الشخص المنقول إليه الخبر وصله الخبر. فعندما نقول إن هناك بلاغا من وزارة المالية إلى المواطنين في الإذاعة حول دفع الضرائب، فهذا البلاغ ينتقل إلى الناس ولكن لا يوجد أي تأكيد من أن كل المواطنين المعنيين بهذا البلاغ قد وصلهم، فعندما يصل محتوى البلاغ إلى إدراك ووعي كل مواطن مقصود بهذا البلاغ يصبح إبلاغا. لذا فعندما أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بتوصيل رسالته إلى الناس قال (بلغ ما أنزل إليك من ربك) ولو قال "أبلغ ما أنزل إليك من ربك" لوجب على النبي أن يتأكد من أن كل إنسان معني بهذا البلاغ قد أدرك ووعى محتويات البلاغ

وبما أنه رسول الله إلى الناس جميعا فيجب عليه في حالة الإبلاغ أن يطوف الدنيا ويتأكد من أن كل شخص وصله البلاغ. ولأن هذا متعذر إن لم يكن محالا فقد قال (ص) في حجة الوداع "ألا قد بلغت اللهم فاشهد" ولم يقل ألا هل أبلغت. وبما أن هودا وصالحا و شعيبا أرسلوا إلى أقوامهم فقط، أي إلى عدد قليل من الناس هم قوم عاد وقوم ثمود ومدين، فكانت عملية توصيل الرسالة عملية إبلاغ لا بلاغ، أهلك بعدها القوم، وإلا فكيف يهلك الله أناسا لم يدركوا ما هو المطلوب منهم ولم يعلموا بأي رسالة؟ في حالة قوم صالح قال لهم (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي)¹.

في حالة قوم شعيب قال (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم)² وبالنسبة لقوم هود قال (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم...)³. وعن رصد

¹ - الأعراف 79.

² - الأعراف 93.

³ - هود 57.

الملائكة للرسول في توصيلهم للرسالات قال: (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ..)¹ ولم يكن مطلوباً من النبي (ص) أكثر من البلاغ في قوله تعالى: (بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصَمُكَ مِنَ النَّاسِ ..)² وقوله: (هذا بلاغ للناس) وقوله (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين)³. فالبلاغ هو مجرد عملية نشر الخبر أو الأمر. والإبلاغ هو عملية التأكد من أن الإنسان المقصود تبليغه قد وصله البلاغ وأصبح ضمن مدركاته.⁴

الخاتمة

بعد هذه الإطلالة نستنتج أن لكل لغة نظام معين، وإنكار محمد شحرور للترادف الذي قد يظنه البعض سبباً لتمييز لغة ما بثناء مفرداتها وسعة التعبير فيها إنما ليظهر دقة المصحف، والنظر إلى ما يعد من الترادف في لغة ما على أنه يعكس مرحلة تاريخية قديمة كانت فيها ألفاظ تلك اللغة تعبر عن التفكير القائم على إدراك المشخص ولم تكن فيها التسميات الحسية قد استكملت بعد تركيزها في تجريدات.

والدكتور شحرور يطرح فكرة مفادها أنه يجب علينا لدى دراسة النظام اللغوي أن نهتم بما هو عام ومضطرد، دون أن نهمل الاستثناءات لأنها تعد شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد. وبهذا نتمكن من دراسة النظام اللغوي في وضعه الراهن (المتزامن) وفي تطوره في آن واحد وأفضل الشواهد التاريخية، هو المادة اللغوية نفسها لأي لغة حقيقية معروفة.

قائمة المصادر والمراجع

- ¹ -الجن28.
- ² -المائدة67.
- ³ - النحل82.
- ⁴ -الكتاب والقرآن المرجع السابق.

- القرآن الكريم
- ابن منصور لسان العرب
- د.محمد شحرور:الكتاب والقرآن/رؤية جديدة، الطبعة الثانية دار الساقى بيروت.2013.
- د.محمد شحرور:الدولة والمجتمع دراسات إسلامية معاصرة/ دار الأهالي،1994.
- د.محمد شحرور:الإسلام والإيمان منظومة القيم/د.محمد شحرور دار الأهالي 1996.
- د.محمد شحرور:السنة الرسولية و السنة النبوية/ رؤية جديدة/دار الساقى2012.
- القصص القرآني قراءة معاصرة/الجزء الثاني من نوح إلى يوسف، دار الساقى.2012.
- الجرجاني:دلائل الإعجاز/تحقيق د.محمد التحي،(بيروت:دار الكتاب العربي،1995) الطبعة الأولى.
- الأزهرى: تهذيب اللغة،تحقيق محمد عوض مرعب،بيروت:دار إحياء التراث العربي،2001.الطبعة الأولى.
- فاضل السمرائي:التعبير القرآني،(عمان الأردن 2002.)الطبعة 2.
- فاضل السمرائي الجملة العربية والمعنى،بيروت:دار ابن حزم 2000.ط،1.
- فاضل السمرائي معاني النحو،عمان:دار الفكر 2000.،ط2.